وقفات مع حديث ما من مولود إلا ويولد على الفطرة

كتبه غريب بتاريخ الأربعاء ١٤ شوال ١٤٤٢

من العجيب في زمننا هذا، وكله عجب، أن يستدل الناس بنفس الحديث على آراء مختلفة اختلاف التناقض، ففي مسألة أطفال المشركين، اختلفوا إلى ثلاثة أقوال:

الأول من يراهم مشركين، ومن لا يحكم بكفرهم كافر لم يعرف الإسلام قط.

وآخر يراهم مسلمين، من كفرهم فهو كافر لم يشم رائحة الإسلام قط.

وثالث يرى أنهم قبل التمييز لاهم كفار ولاهم مسلمين، وأنهم بعد التمييز كفار، وطبعا يرى أن سابقَيه لا يعرفون من الإسلام سوى اسمه.

وكل واحد من هؤلاء يزعم أنه يستدل بالحديث نفسه، وهذا محال لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذي كُلف بالبلاغ المبين، كلامه فصلٌ مبينٌ ينهي الاختلاف وليس سبباً للاختلاف، يقول ربنا عز وجل:

﴿وَما أَنزَلنا عَلَيكَ الكِتابَ إِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اختَلَفوا فيهِ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ﴾

[النحل: ٦٤]

فعُلم يقيناً أن هؤلاء كذب بعضهم في زعمه الاحتجاج بهذا الحديث، وهذا ما سوف نبينه من خلال مدارسة الحديث عبر المحاور التالية:

- نص حديث ما من مولود إلا ويولد على الفطرة
- المواليد الذين يتحدث عنهم الحديث
- هل الفطرة دين؟
- هل الإسلام قابل للتوريث
- الكفر يثبت بالتقليد
- شبهات وردود
    - لا يوجد غير مسلم وكافر

- الفطرة هي الإسلام
- معاملة أطفال المشركين في الحرب

نص حديث ما من مولود إلا ويولد على الفطرة

لهذا الحديث عدة رويات صحيحة واخترت منها ما رواه البخاري برقم ١٣٥٩ :

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، أن أبا هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء».

ثم يقول أبو هريرة، رضي الله عنه:

{فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم}

المواليد الذين يتحدث عنهم الحديث

إن أول تحريف يقع فيه الناس عند قراءتهم لهذا الحديث، هو كونهم يعتبرونه خاصاً بأطفال المشركين وهذا عكس ما يظهر في قوله:

ما من مولود يولد إلا ...

فهذا استثناء بعد نفي وهو من أساليب الاستغراق والتوكيد، فهو يعني كل مولود يولد على الفطرة ولا استثناء

إذاً الحديث الذي بين أيدينا يتحدث عن جميع الأطفال بما فيهم أطفال المسلمين أيضا وهذا يعني:

أن من قال أن أطفال المشركين مشركون مباشرة بعد ولادتهم، عليه أن يقول أن أطفال المسلمين مشركون أيضا بعد ولادتهم، فالحديث يشملهم كلهم، وهذا لا شك في بطلانه

يقول من يدعي بأن أطفال المشركين مشركون مباشرة بعد ولادتهم أن شركهم بالتبعية لآبائهم

فلهم نقول أين في الحديث ما ذكرتم؟

هل قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما من مولود يولد إلا على دين آباءه, فنقول أنهم مشركون بالتبعية كما زعمتم؟

من الواضح أن هذا القول لا يقوم عليه دليل من هذا الحديث الذي بين أيدينا, ومن ثم استدلال أصحاب هذا القول بهذا الحديث على قولهم استدلال فاسد.

هل الفطرة دين؟

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال:

ما من مولود يولد إلا على الفطرة

فهل الفطرة دين يتدين به المرء؟

إن الدين يُعرّف بكونه مجموعة النظم المكتسبة الذي يتقيد بها المرء, سواء قناعة أو تقليداً, فالذي يعتنق دينا معينا يجب أن يأخذ القرار باعتناقه, إما قناعة, أو تقليداً

فمثلا الذي يريد اعتناق دين الإسلام يجب أن يأخذ القرار بإسلام نفسه لله, يقول ربنا عز وجل:

›وَأَنيبوا إِلى رَبِّكُم وَأَسلِموا لَهُ مِن قَبلِ أَن يَأتِيَكُمُ العَذابُ ثُمَّ لا تُنصَرونَ‹

[الزمر: ٥٤]

وكذلك الكفر أيضا قرار يتخذه المرء ودليل ذلك قوله سبحانه:

›كَمَثَلِ الشَّيطانِ إِذ قالَ لِلإِنسانِ اكفُر فَلَمّا كَفَرَ قالَ إِنّي بَريءٌ مِنكَ إِنّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ العالَمينَ‹

[الحشر: ١٦]

أما الفطرة فهي الخلقة التي خلق عليها الإنسان ولا دخل للإنسان بها, وليس مدركا لها أصلا, ولذلك ليست دينا يتدين به المرء

وعليه فإن الذين قالوا أن أطفال المشركين مسلمون مباشرة بعد ولادتهم بدليل أنهم على الفطرة هم قوم لم يعرفوا أن الإسلام قرار يتخذه المرء قناعة وليس أمرا يُجبل عليه الإنسان.

هم يستدلون بشبهة أن الفطرة هي الإسلام وهو استدلال باطل كما سوف نبين لاحقا إن شاء الله في هذه السطور، ونظراً لكون ربنا عز وجل قد قال:

‹وَاللَّهُ أَخرَجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعلَمونَ شَيئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشكُرونَ›

[النحل: ٧٨]

فالإنسان عند ولادته لا يعلم شيئا، لا يعرف الله معرفة حسية واعية، ولا يعرف الإسلام ولا يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا علم له مطلقا، ومن ثم فإن من الجهل القول بأنه مسلم وهو لم يسلم ولم يعبد الله قط.

هل الإسلام يُورَثُ؟

بمعني هل يمكن أن نكون مسلمين فقط لكوننا ولدنا من أبوين مسلمين، وورثنا الإسلام عنهم؟

الجواب طبعا لا، فالإسلام قرار يتخذه المرء عن قناعة، ولكن نظراً لكون ربنا عز وجل خلق كل فرد على الفطرة ومنها توحيد الله عز وجل، فإن الأب إذا قال لابنه لا إله إلا الله صدقه فورا لما يجد في فطرته، وإذا أخبره بأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق بذلك، فابوه مؤتمن عنده فطريا، وعقلا، لذلك يصبح الولد مسلما فعلاً وليس مقلداً فلا إسلام بالتقليد .

وعليه فإن الولد بعد سن التمييز يسلم نتيجة لفطرته ولدعوة والديه له، وليس نظرا لكونه ورث الإسلام كما يعتقد البعض.

في الحديث لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم "أو يمسلمانه" لأن الإسلام قرار شخصي لا يمكن أن يفرض على المرء أو أن يكون تقليداً.

الكفر يثبت بالتقليد

خلافا للإسلام الذي يجب أن يكون قناعة فإن الكفر يثبت بالتقليد، يعني لا يشترط فيه القناعة

وهذه حال جل الكفار، فجل الكفار ليس مقتنعا بدينه أبدا، وإنما هو تقليد ورثه عن آبائه، وهذا دلت عليه آيات كثيرة وأحاديث فدوما رد الكفار على رسلهم أنهم وجدوا آباءهم على دين وهم يتبعونهم، وهذا نص عليه هذا الحديث:

فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه

أي أنه يُصيّر يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا رغماً عنه، والسبب أن التقليد صورة من الصور الإكراه، فصاحبه لم يأخذ القرار عن قناعة وإنما فرض عليه نتيجة لسلطة المجتمع، وهنا فرض الدين على الولد بسلطة الوالدين وليس قناعة من الولد، ويصبح كافراً بتقليده آبائه شأنه شأن بقية الكفار البالغين.

إذاً حكم أطفال المشركين هو أنهم على الفطرة قبل سن التمييز وكفار على دين آباءهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن قال هذا لا يمكن أن يخطئه أحد إلا شخص مجنون معرض يريد أن يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا هو ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحرف في الحديث.

شبهات وردود

الآن بعد أن عرفنا القول الفصل في مسألة أطفال المشركين الذي دل عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، علينا أن نبحث عن شبهات القوم التي جعلتهم يقولون ما قالوا وهذا ما سوف نتناوله فيما يلي:

لا يوجد غير مسلم وكافر

يقول أصحاب هذه الشبهة أنه لا يوجد سوى إسلام وكفر، ولذلك القول بأن اطفال المشركين قبل سن التمييز لاهم مسلمين ولاهم كفار قول باطل، والدليل على أنه لا يوجد قسم غير المؤمن والكافر هو قوله سبحانه:

﴿هُوَ الَّذي خَلَقَكُم فَمِنكُم كافِرٌ وَمِنكُم مُؤمِنٌ وَاللَّهُ بِما تَعمَلونَ بَصيرٌ﴾

[التغابن: ٢]

جواب هذه الشبهة يكمن في نقطتين:

أولا ليس في آية التغابن دليل على أنه لا وجود لغير المؤمن، والكافر، فالآية لم تقل لا يوجد غير مؤمن وكافر، وإنما قالت أن من خلق الله مؤمنون ومن خلقه كفار، لذلك الاستدلال بها على حصر الخلق في كافر ومؤمن هو نوع من تحريف الكلم عن مواضعه وجهل شنيع باللسان.

النقطة الثانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنهم على الفطرة، والفطرة ليست دين كما مرّ معنا، ويؤكد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن مصيرهم في الآخرة:

الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم

فلو كانوا مسلمين لقال هم في الجنة، فهم لم يذنبوا بعد، ولو كانوا كفارا لقال هم في النار، فلا شك أن من مات كافرا في النار.

ولكنه لم يقل أيا من ذلك، لأنه لا دين لهم بعد، فالدين من عمل المرء ولذلك قال الله أعلم بما كانوا عاملين أي ما كانوا سوف يدينون به حين يكبرون، فثبت بذلك أنه لا دين لهم عند الولادة ولا هم مسلمين ولا هم كفار، وبالله نتأيد.

هل الفطرة هي الإسلام؟

يستدل القائلون بأن الفطرة هي الإسلام بقوله سبحانه:

﴿فَأَقِم وَجهَكَ لِلدّينِ حَنيفًا فِطرَتَ اللَّهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيها لا تَبديلَ لِخَلقِ اللَّهِ ذلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ﴾

الروم: ٣

وهو استدلال باطل من وجهين أيضا كسابقه، وإليك بيان ذلك:

أولا حرف الإشارة في قوله "ذلك الدين القيم" يشير إلى الحنيفية أي إلى قوله

فأقم وجهك للدين حنيفا

وليس للفطرة, لأن هذا الأمر هي المسند إليه وبقية الآية دون حرف الاستدراك لكن, مسندة, تصف هذا الأمر فوصفته بكونه الفطرة ووصفته بالدين القيم, وهذا ما دل عليه أيضا قوله سبحانه:

<ما تَعبُدونَ مِن دونِهِ إِلّا أَسماءً سَمَّيتُموها أَنتُم وَآباؤُكُم ما أَنزَلَ اللَّهُ بِها مِن سُلطانٍ إِنِ الحُكمُ إِلّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلّا تَعبُدوا إِلّا إِيّاهُ ذلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ>

يوسف: ٤٠

وهذا هو الصحيح فتوحيد الله هو الدين القيم وقد فطر الناس عليه, أي خلقها عليه, لذلك من السهل على المرء أن يعبد الله وحده لان ذلك متوافق مع فطرته.

وليس معنى الآية أن الفطرة هي الدين القيم كما يتوهم البعض لجهلهم بأساليب التعبير في اللسان.

ثانيا كلمة الدين القيم لا تعني الإسلام لزاما فقد وردت على بعض شعائر الإسلام دون بقية الإسلام, ففي آية يوسف السابقة أطلقت على عبادة الله وحده, ولم تتحدث عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعه الذي هو من الركن الأول من أركان الإسلام

كما أنها أطلقت على التقويم القمري وتقسيم الاشهر لحرم وحلال في قوله سبحانه:

<إِنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِندَ اللَّهِ اثنا عَشَرَ شَهرًا في كِتابِ اللَّهِ يَومَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ مِنها أَربَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدّينُ القَيِّمُ فَلا تَظلِموا فيهِنَّ أَنفُسَكُم وَقاتِلُوا المُشرِكينَ كافَّةً كَما يُقاتِلونَكُم كافَّةً وَاعلَموا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقينَ>

التوبة: ٣٦

وتركت بقية الإسلام.

لذلك القول بأن الفطرة هي الإسلام بدليل آية الروم السابقة هو قول باطل لا يقوم عليه دليل لا من الآية نفسها ولا من بقية الوحي, كما أنه دليل على جهل صاحبه بالإسلام أصلا.

والعياذ بالله ترك بعض المفتونين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا ويولد على الفطرة الصريح، وأخذوا يبحثون في أحاديث لا تتعلق أصلا بالحكم على دين الأطفال، وإنما تتحدث عن أحكام التعامل معهم في الحرب، وهذا من الخذلان وترك المحكم واتباع المتشابه والعياذ بالله.

فيقولون أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هم منهم دليل على كونهم كفار، وهذا استدلال باطل لأنه تحريف الكلم عن مواضعه فرسول صلى الله عليه وسلم لم يقصد كونهم منهم في الدين وإنما قصد في التعامل، فيعاملون مع معاملة الكفار مع فارق أنه لا يتقصد قتلهم، والسبب أنه لا يمكن تمييزهم عنهم في المعاملة وقت الإغارة .

ومما يؤكد أن قوله هم منهم في التعامل وليس في الدين كونه صلى الله عليه وسلم فصل دينهم في حديث ما من مولود ويولد إلا على الفطرة، وحشاه صلى الله عليه وسلم أن يتناقض.

هذا ما أردت قوله في الباب مع يقيني أن الزيغ إذا تمكن من قلب أحد، لم ينفعه دليل، ولكن معذرة إلى الله ورجاء أن تجد حروفي من لم يشرب قلبه الزيغ والهادي لكل خير، ومن يضلل فماله من هاد.